مقدمة

أكتابٌ بقلم الركتور صرّوف ؟

للآنسة « مي »

إنَّ ذلك القلم الذي قصفتهُ يد الردى لَخالدٌ في نتاجهِ الموفور ، والدروس المجموعة بين دفّتيّ هذا الكتاب لجديرة بأن تُحسب اليوم جديدة

يحدثنا هذا الكتاب حديثاً علميًّا وضيئًا استقرائيًّا على نسق مشوّقٍ كنسق الروايات ، مفيدٍ لأنهُ عديد المعلومات ، خلقيٍّ لأنهُ يشحذُ الهمم ، نبيلٍ لأنهُ يرفع المدارك ويمضي بها إلى أبعادٍ يلمس الانسان عندها الصلة التي تربطهُ بجميع الخلائق فيدرك انَّ الحياة النابضة فيه هي هي نفسها التي تنبضُ في قطرة الماء ، في الغرسة الضئيلة ، في الزهرة المنسية ، في نسمة الهواء ، في نطفة النار ، في الحيوان الأعجم ، في الجبل الصامت ، في مدّ البحار وجزرها ، في ذرّة الأثير ، في العوالم والمنظومات الشمسية والسدم المنثورة ، في ما يُرى من الافلاك وفي ما لا يرى

حديث جذاب يستوقف الانتباه ويستولي على الفكر ككل موضوعٍ ذي علاقةٍ مباشرة بالانسان لأنهُ حديث عن الطبيعة : تلك القوّة الباهظة الرهيبة التي تهدم ابداً وتبني وتبني وتهدم بحركة واحدة متشكلة بألف ألف شكل ، متكوّنةً بألف ألف صورة ، مبتدعة من نفسها ولنفسها ما لا يحصى ولا يحصر من الأصوات والألوان والحركات والنظم والكيفيات والنزعات والاشواق. **تلك القوّة المستأثرة الحيّارة التي نصفها تارةً بالرفق والجود والخير ، وطوراً بالجور والبخل**

والشرّ لأننا نحسبنا النقطة المركزية منها ونزعم انها لم تخلق إلاّ لمصالحنا وخدمتنا . ولكننا نحن الذين نتمّم مشيئتها وتنفذ أغراضها وشأننا في ذلك شأن سائر المخلوقات ...

حديث عنا نحن بني الانسان لانهُ يحدثنا عن الحيوانات والنباتات إخوتنا في الطبيعة وفي الحياة وشركائنا في محاولة رفع وطأة الأقدار للتغلب على قيود الجبرية والانطلاق إلى فضاء الحرية . ولقد ألفنا في الحيوان الحركة والانتقال والسعي من غير انتباه إلى ما ينفقهُ من ذكاء وشجاعة وإقدام لمكافحة ما يعترضهُ في سبيله من مقاومة وحاجز. على أننا مهما اتسع خيالنا ومهما دقّ نظرنا في التعرُّف إلى أحكام القدرية والجبرية فاننا لا نجد بين النواميس الكبرى التي ترهقنا ناموساً أفظع من ذاك الذي يقضي على الغرسة بالعبودية ويحكم عليها بالجمود في مكانها من ساعة الولادة إلى ساعة الاندثار

إنّ عالم النبات الذي قد يبدو للكثيرين مثال الوداعة والرضا والقناعة والامتثال لهو ، على النقيض ، عالمٌ تصطخب فيه عوامل العصيان والثورة على القَدَر في أقسى مظاهره المتمثلة في العضو الجوهري الذي يمدّ الغرسة بالغذاء في حين هو يقيدها بالأرض من غير ما أمل بالانعتاق... وتتمرّد الغرسة الصغيرة على هذا القدر في بادىء الامر. وحرارة اشواقها وقوة نزعاتها المتصاعدة من ظلمات جذورها لتنتظم أوراقاً ، وتتفتح ازهاراً ، وتنضج اثماراً — لهي مشهد فريد لا يُضاهَى . فهي بكليتها تصبو إلى التفلّت في أعاليها من القدر العصيّ المستحكم في أصولها ، وإلى تحطيم قيد ذلك النظام الجائر للانطلاق بعدئذٍ من المجال الذي يأسرها مستعيرة من الهواء جناحاً ينقلها إلى أبعد مدى ممكن ، حيث تتم في فضاء جديد وتعترك في حياة ووجود آخر . . . وليس في هذا شيء من الوصف الشعري الخياليّ بل في الفصول التالية ما يثبتهُ بالدليل العلميّ المحقق

قد يُقضى عليها في طريقها ، وقد تفوز بغايتها وهي كثيراً ما تفوز . وعلى كلّ فان تلك النبتة الصغيرة تقدم أبدع مثالٍ من عدم الرضى بالواقع وعدم الركون إلى أحكام القدر ، ومن الذكاء والنشاط وبراعة الابتكار وركوب الاخطار والمقاداة رغبة في تحسين نوعها وإنالة ذراريها حظاً خيراً من حظها

أنّى أدرنا البصر في جوانب الخليقة وجدنا ان النظام الأعظم المسيطر على حياة الجماد والنبات والحيوان لهو نظام العمل والنشاط ، ووجدنا انّ فكرة العالم في الوقاية والجمال والتمتع والحبور والانتقال من مرتبة إلى مرتبة وقهر المسافة والتغلب على القدر — شديدة الشبه بفكرة الانسان في كلّ اوانك . بل ليس هناك ما يثبت ان الانسان ابتكر شيئاً من تلقاء نفسه ومن وحي خياله الخاص . وإنما جميع ما لديه من الانماط الهندسية والبنائية والفنية والموسيقية ، وكل ما يسميه اختراعات ميكانيكية وكهربائية وغيرها بما فيها فنّ الطيران — كلها مستعارة من الطبيعة

وقد سبقهُ إلى اصطناعها والانتفاع بها الحيوان والنبات . وبعض الصفات التي نكبرها ونمجدها في الابطال من بني الانسان نراها احياناً في أروع مظاهرها في الحيوان المجهول وفي النبتة التي لا تختلف عن صاحبتها في شيء ...

جميع فصول هذا الكتاب تحدثنا عن قدرة الطبيعة وسليقة الحياة ونباهة الحيوان والنبات وذكائهما . ولكن بينا هي تبسط تلك الحقائق العلمية الشائقة إذا بها تلفتنا إلى الفرق الجوهري بين النوع الانساني والانواع الاخرى . فتقول ان الحيوان ، مثلاً ، « يتآلف ويتعاون ويحارب بعضهُ بعضاً ويبني المنازل ويشيد الجدران ويحفر الاسراب ويصنع لها ابواباً ومزاليج ويحب ويبغض وينتقم ويعاقب ويثيب ويرضى ويدخر للغد ويقيم القواد والقضاة إلى غير ذلك من الاخلاق العقلية والادبية والاجتماعية على ما نراهُ مبسوطاً في هذا الكتاب . فاذا أنكرنا النطق على الحيوان لا نكون انكرنا عليهِ صفةً أسمى من هذه الصفات ، وإذا اثبتناهُ لا نكون قرّبناهُ من نوع الانسان . بل يبقى الفصل بين الانسان والعجماوات بالنفس الخالدة صفة مميزة لنوع الانسان » (ص ١٢٠ — ١٢١)

. . . « النفس الخالدة » . . . ان الدكتور صرُّوف ، الفيلسوف الوضعي والعالم الطبيعي ، كان يعتقد بوجودها ، وفي هذا امثولة للذين يرون الايمان ملازماً للجهال دون العلماء . وكان يؤمن بالمبادئ الاخلاقية مبادىء الحق والعدل والصدق والاستقامة والرحمة والحب التي ، برغم ما يطفو على العالم من ظلمات الشر ، ما فتئت تهز النفوس بأسمى العواطف وما زالت الجماهير تؤيدها وتنشدها ولو سارت تلك الجماهير بأعمالها الفردية على ما يناقضها . كان يؤمن بالجمال الاخلاقي وبروح الحرية التي لا تترتب على نظام بل هي ميزة نفسية داخلية تدفع بالانسان الى الاعمال العظيمة والتضحيات الجسيمة في سبيل تحقيق مثل أعلى يختلف عن غايات الطبيعة في جمادها ونباتها وحيوانها . لان الطبيعة التي اوجدت في كل نوع من الانواع الغرائز المتوافقة وطبيعته ، الضرورية للقيام بنصيبه من مشيئة الحياة فيه ، قد اوجدت كذلك في النوع الانساني مبدأً خلقيًّا سامياً ومثلاً أعلى لا يفتأ ينشده سعيداً كان او شقيًّا . النوع الانساني وحده خصّ بالمثل الاعلى ، وفي تطلبه يتلمس الغايات السرية الغامضة الكامنة في قلب الوجود ويتزع الى الاتصال بالالوهية الشاملة المهيمنة على هذا الكون العظيم

وفي هذه الفصول مثال جميل من اسلوب الدكتور صرُّوف في التفكير والكتابة ، ذلك الاسلوب المعروف بالسهل الممتنع الذي لا تستطيع ان تزيد عليهِ كلمة او تحذف منهُ كلمة ، لان كل لفظة راسخة الوضع ، محكمة الدلالة ، وكل جملة انيقة في بساطة ، بليغة في جلاء ، طلية في وضوح ، مشبعة في ايجاز . ففي كل هذا طراز لطالبي التجديد في الانشاء . ولو نحن ذكرنا ان بعض هذه الفصول كتبَ قبل نصف قرن يوم كان البيان العربي زركشة في اللفظ وسجعاً

وتورية وبديعاً واغراقاً — لتجلى لنا جانب من مواهب ذلك الفقيد العظيم فأبصرنا خياله الرصين المهيب يتهادى بين هذه الصفحات

إن خياله ليتهادى بين هذه الصفحات . واذا كانت الروح الخالدة ، التي كان يعتقد بوجودها، تشترك في شؤون عالمنا هذا ولو بعض الاشتراك ، فان روح الدكتور صرُّوف لتنظر إلى هذه المجموعة فتبتسم ابتسامة الرضى وتشترك مع القراء في الثناء على جامع هذه الفصول وناسقها وناشرها ، خليفة الدكتور في مكانته العلمية وولده بالفكر والروح الذي احتفظ بحياة «المقتطف» ونهض به هذا النهوض الذي نشهد . ان صرُّوف الفتى ورث عن عمِّه العظيم شتى المواهب العلمية والخلقية والفكرية كما ورث عنهُ مميزاته الكتابية وخصائص انشائه وبيانه . ويسرُّني ان أذيع سرًّا (إن صحَّت تسمية هذا بالسر) وهو ان فئة من هذه الفصول كتبت بقلم الاستاذ فؤاد صرُّوف . فأدعو القارىء إلى الانتباه إلى تلك الفصول والمقابلة بينها وبين الفصول الأخرى إذن يرأن التمييز بينها متعذر[1]

ولقد أحسن الاستاذ فؤاد صرُّوف بنشر هذا الكتاب في حين اللجنة المحترمة تحاول القيام بواجبها في نصب تمثال صرُّوف الكبير في الجامعة الاميركية ببيروت حيث تلقَّى دروسه. ونحن حيال فكرة هذا التمثال المتحققة في الغد وحيال الخيال الخالد المتهادي بين هذه الصفحات نصمت طويلاً وننحني في خشوع واعجاب وشكران

« مي »

(١) الفصول المكتوبة بقلم الاستاذ فؤاد صرّوف هي : المعادن في غذاء النباتات ص ٤٢ (٢) هل للنبات احساس نابض ص ٥٢ (٣) الاحياء المنيرة ص ١٩٢ (٤) الرعّاد او السمك الكهربائي (الجانب الاخير من المقالة) ص ١٩٨ (٥) طير القبّارة ص ٢٤٢